

إضاءات نقدية (فصلية محكمة)

السنة الأولى - العدد الثاني - صيف ١٣٩٠ ش / حزيران ٢٠١١ م

التحليل والنقد لشخصية وأدب إلياس فرحات،

شاعر العرب في المهجر

دكتور حسن مجيدي*

إنسية سكاكي**

الملخص

انتقل مجموعات كبيرة من الناس للأراضي العربية، ولاسيما لبنان وسوريا، إلى الأمريكتين الشمالية والجنوبية في أواخر القرن التاسع عشر وخلال العشرين، حيث استقرّوا في أمريكا، وكندا، والبرازيل، والأرجنتين، والمكسيك. كان هذه الهجرة في كثير من الأحيان نتيجة للتخلص من المشاكل الفكرية، والاجتماعية، والاقتصادية التي كانت قد سيطرت على المجتمع العربي. يتعرّض هذا المقال من بين هؤلاء المهاجرين، لإلياس فرحات، الشاعر اللبناني الذي هاجر إلى البرازيل. يهيمن نفسية شعراء العرب القدماء بصورة واضحة على قوالب أشعار فرحات هيمنة لا يمكن لفرحات التخلص منه نظراً لتشابه ظروف معيشته بهتمعكس قصص فرحات الشعرية مختلف جوانب حياته وتجربته الشخصية على نطاق واسع.

الكلمات الدلالية: لبنان، إلياس فرحات، الهجرة، الأدب القديم، القصص الشعرية.

*.عضو هيئة التدريس بجامعة تربيت معلم في سيزوار - أستاذ مساعد.

** خريجة جامعة تربيت معلم في سيزوار.

التنقيح والمراجعة اللغوية: د. مهدي ناصري.

Majidi.dr@gmail.com

تاريخ القبول: ١٣٩٠/٥/١٢ هـ. ش

تاريخ الوصول: ١٣٩٠/٤/٢٧ هـ. ش

www.SID.ir

المقدمة

يعتبر إلياس فرحات شاعرا لبنانياً مهجرياً ولد في قرية كفر شيما، وتلقّى دروسه الأولى في دير القرقفة القائم على رأس رابية تشرف على تلك القرية، وفي سنّ العاشرة ترك المدرسة وراح يتدرّب على المهن اليدوية، علّه يجد فيها طريق النجاح في الحياة. وفي سنة ١٩١٠م هاجر إلى البرازيل، وانضمّ إلى أخويه وديع، وسعيد في ولاية ميناس، ثمّ انتقل إلى سان باولو وزاول عدّة أعمال من تنضيد للحروف المطبعية، إلى تربية المواشى والدواجن، إلى جباية اشتراكات الصحف، إلى غير ذلك مما لم يحل دون انصرافه، في أوقات الفراغ، إلى المطالعة والتمكّن من قواعد الكتابة والنظم وقد اشترك مع توفيق ضعون في إصدار مجلة الجديد ثمّ في تحرير جريدة (المقرعة) التي أنشأها سليم لبكي.

وفي سنة ١٩٢٠م اقترن بجوليا بشارة جبران من بشرى. وفي سنة ١٩٤٨م فاز بجائزة الشعر من مجمع فؤاد الأول. وقد منحته الحكومة السورية وسام الاستحقاق من الدرجة الأولى. في سنة ١٩٥٩م قدم سورية بدعوة من حكومتها، وأقام فيها وفي لبنان مدة كانت من أطيب أيامه. ثمّ عاد إلى البرازيل ليلقى فيها ربه سنة ١٩٧٧م. (الفاخوري، ١٣٨٠ش: ٦٥٠)

شخصيته

إلياس فرحات من العصاميين الذين ذلّوا الصّعب بعنادهم، وقد عاند الحياة فاقتنص الرزق من بين أنيابها، وتدرج في العلم وحيداً لا يعتمد إلا على ذكاء فطري عجيب إلى أنّ ملك ناصية اللغة، وتدرج أيضاً في النظم معتمداً على فطرته الشعرية وأذنه الموسيقية إلى أن أصبح من أربابه. (المصدر نفسه: ٦٥١)

حياته في البرازيل

وصل إلياس إلى البرازيل في السابع والعشرين من شهر نوفمبر سنة ١٩١٠م وإنما

أصبح همّه الأول أن ينشر أفكاره وآراءه على الناس بشكل واسع، وهذا ما جعله يميل إلى الاهتمام بالصحافة وإلى العيش في سان باولو، عاصمة العرب في البرازيل، حيث الأدباء، والصحف، والمجلات، والندوات... وفي هذه المدينة اشترك مع ضعون في إصدار مجلته (الجديد)، وكان باكورة ما نشر له في الجديد موشح (يا جماعة) وهي إلى حبيبة غادرها في الأفق الجميل، ثم موشح آخر بعنوان (عجل الذهب) يبين فيه قسوة أهل الفتاة عليها من أجل عريس موسر وصفه بالذئب الكاسر. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٩٣)

لقد شقى فرحات وتعذب كثيراً في سان باولو، ونام ليالي دون عشاء، ومع ذلك لم يكن يرغب في البعد عنها لما فيها من الأدباء والروح الأدبية. تزوج فرحات، ولكن حياة كفاحه ومشقته لم تتوقف بل زادت وتضاعف العبء، فأخذ يربي الخنازير والحملان... كل هذا، دون أن ينصرف عن قول الشعر. (فرحات، قال الراوى، لاتا: ٢١-٢٥)

لم تستقر حياة فرحات في مكان واحد، فهو يملك روحاً لا تعرف الاستقرار أو الهدوء فتراه ينتقل بعد زواجه أيضاً، من مدينة إلى أخرى ومن ولاية إلى ولاية، ومن عمل إلى عمل.

واستمرت حياة فرحات على هذا النحو، معاناة ومشاق من أجل العيش وبشكل خاص قضية فلسطين، حتى يومنا الحاضر.

في سنة ١٩٥٣م طبع له (موسى كريم) صاحب مجلة الشرق في سان باولو ديوان (أحلام الراعى)، ووزّعه على مشتركين مجاناً... وهو عبارة عن ست قصائد فيها روح القصة، أو ستة أحلام تدور حوادثها بينه وبين نعاجه وكلبه، فيها الحكم والفلسفة والمثاليات ووجهة نظر في الإنسان وأخلاقه وصفاته. (العودات، لاتا: ٧٢٠)

آثاره الأدبية

١. ديوان فرحات. ٢. الرباعيات أو رباعيات فرحات. ٣. أحلام الراعى. ٤. عودة

الغائب. ٥. فواكه رجعية. ٦. قال الراوى. (الفاخورى، ١٣٨٠ش: ٦٥١)

اتجاهات إلياس فرحات فى الشعر القديم

مراحله الشعرية

نستطيع أن نتسلسل معه تاريخياً فى محاولة لتقسيم شعره الوطنى، والسياسى إلى ثلاث مراحل:

١. المرحلة الأولى تنتهى بنكبة فلسطين سنة ١٩٤٨م وذكر فلسطين فيها قليل إلا فى الفترة الأخيرة، وفيها فخر شديد بالعرب وتهديد للغرب.

٢. المرحلة الثانية تنتهى سنة ١٩٥٦م وتمتاز بالمرارة والألم وفيها التعرض للزعماء العرب وتقريعهم والتركيز على قضية فلسطين.

٣. المرحلة الثالثة حتى سنة ١٩٦٣م تاريخ آخر قصيدة وصلت إلينا. ويبدو فيها الشئ الكثير من التفاؤل والأمل.

سنلاحظ أن الشعر السياسى، والوطنى الذى نظمته فرحات بعد النكبة، يختلف إلى حد كبير عما نظم قبلها، إذ أصبح يميل إلى الشدة، والغنف، والخطابة، واللوم.

أما المرحلة الثالثة فهى تمتد ما بين سنة ١٩٥٦م إلى سنة ١٩٦٢م، وهذا الأخير تاريخ آخر قصيدة نظمها فرحات ووصلت إلينا... وكل القصائد التى نشرت فيما بين هذين التاريخين نشرت فى ديوان واحد صدر أخيراً سنة ١٩٦٧م فى مصر تحت عنوان (مطلع الشتاء).

والحقيقة أن هذا الديوان يمتاز بالتفاؤل والأمل، بخلاف شعره الذى نظمته على أثر النكبة. (ديوان قطامى، ١١١٩م: ١٣٣-١٥٤)

تأثره من الأدب القديم

إنّ حياة فرحات وثقافته لتذكرنى بالشعراء العرب القدماء الذين كانوا ينشأون فى المدن، ثم يخرجون إلى البادية لتلقى اللغة وأساليب البلاغة والبيان، مشافهة من السنة

الأعراب. وذلك حتى تستقيم ألسنتهم وتخلص من اللحن، وتقوى أساليبهم، تجزل ألفاظهم شعر الشعراء الذين قضوا فترة من حياتهم فى البداية. وقد ساعده فى حفظ الشعر الذى كان يقرؤه تلك الذاكرة القوية التى وهبها الله له... وهكذا استطاع أن يتجنب الأخطاء اللغوية والنحوية والعروضية، ويفهم القواعد كلها بالسليقة، معتمداً على أذنه التى تلقت آلاف الأبيات. (بدوان قطامى، ١١١٩م: ١١٢)

تأثره من المتنبى

أغرم فرحات بالمتنبى وأقبل عليه بشغف، وسلمه زمام نفسه، وجعله رائده وأستاذه وقدوته. وهذا يبدو فى كثير من الألفاظ القديمة التى نجدها عنده، وفى ذكر أسماء الأسلحة وأدوات القتال التى نجدها فى شعر المتنبى، وخاصة سيفياته، كما يبدو فى الحكم والرثاء والمبالغات والتضمينات، وحتى فى الأوزان والقوافى... وفرحات لا يحاول إنكار ذلك فهو يقر بفضل المتنبى، ليس عليه فقط، بل على كل شاعر:

له السلطة العليا على كل شاعر
فلا يدع التجديد بالشعر ناظم
(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٤٢)

كما يعتبره أشعر الشعراء:

يا أبا الطيب يا أشعر من تحت السماء
يا أمير الأمس واليوم وفخر الشعراء
(فرحات، مطلع الشتاء، ١٩٦٧م: ٩٦)

لا يطلب المرء فهماً فى الجميع ولا
يبغى من البدو ما يبغى من الحضرة
(فرحات، الرباعيات، ١٩٥٤م: ٧٤)

من حكمة المتنبى:

وإذا خفيت على الغبي فعاذر
أن لاترانى مقلّة عمياء
(المتنبى، ١٨٩٨م: ٩٣)

وقوله أيضاً:

لسنا نجادل عمياً يطلبون على
ضوء النهار دليلاً والنهار جلى
(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ٥٨)

من حكمة المتنبي:

وليس يصح في الأفهام شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

(المتنبي، ١٨٩٨م: ٢٤١)

ومن قصائده، (المتنبي)، التي نظمها بمناسبة مرور ألف عام على وفاته، يقول منها:

مجرة مجد رصعتها المراقم لكوكب سعد أطلعته العظائم

تمشوا علينا والرضى يستر الردى «كما تمشى فى الصعيد الأراقم»

إذا فتروا أذكى الحماسة هاتف «على قدر أهل العزم تأتي العزائم»

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٤٢)

وقصيدته (سان باولو) التي يقول منها:

أنهجرها وتبخل بالسلام وكنت تزور حتى فى المنام

وأنزل كل يوم دار قوم ودارى مرة فى كل عام

(المصدر نفسه: ١٧٧)

ففى القصيدتين الأولى والثانية، يظهر أثر المتنبي واضحاً، وخاصة جو قصيدته التي

نظها سنة ٣٤٣ق يمدح فيها سيف الدولة، ويذكر بناء ثغر الحدث:

على قدر أهل العزم تأتي العزائم و تأتي على قدر الكرام الكرائم

(المتنبي، ١٨٩٨م: ٢٩٠)

«أما سمة البدواة التي تظهر فى شعره، فهذه أيضاً تعود إلى المتنبي وأثر البادية فيه

فقد كان لحياته الأولى فى البادية وبين الأعراب، ومعرفته بأصول اللغة واستعمال الكلمة

فى موضعها من كلام العرب، أثر راسخ فى موهبته وطبعه، حتى إن مياسم البادية ما

فارقت قصيدة واحدة من قصائده.» (زكى المحاسنى، لاتا: ٤١)

تشابهه وتأثره من المعرى

هناك شاعر آخر تأثر به فرحات، إلى حد ما، ولكن تأثره بأفكار هذا الشاعر ونهجه

أكثر من تأثره بألفاظه وأساليبه. وهذا الشاعر هو أبو العلاء المعرى... والحقيقة أن هناك

تشابهاً كبيراً بين شخصية المعريّ وصفاته، وبين شخصية فرحات وصفاته، بالإضافة إلى تشابه ظروفهما... ومن الصفات التي نجدها عند المعريّ ونجد مثلها عند فرحات: «الذاكرة الجبارة، قوة التحليل العقلي، الجرأة، الأنفة.» (فروخ، ١٩٦٠م: ٢٧-٢٨) ولا بد أنه تأثر بتلك اللمسات الخفيفة التي مسّ بها المعري أخلاق الناس في زمانه من مثل قوله:

فظنّ بسائر الإخوان شرّاً
فلو خبرتهم الجوزاء خبري
ولاتأمن على سر فوادا
لما طلعت مخافة أن تكادا
وذدت عن العدو فما أعادى
وأى الأرض أسلكه ارتيادا؟
ويغضنى ضميراً واعتقادا
ويظهر لى مودته مقيالاً

(المعري، ١٩٦١م: ١٩٧-١٩٨)

كما تأثر إلى حد ما بتشاورمه نظرته السوداء إلى الحياة، فبرز هذا كله، بتأثير ظروفه وحياته في المهجر، وعلاقاته بالناس بشكل واسع في الرباعيات، ذلك الديوان الذي يعد ثمرة لطموح الشباب أنضجتها مصاعب العيش وقسوة الحياة. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ١١٩)

هناك قصيدته التي نظمها سنة ١٩٤٤م بمناسبة مرور ألف عام على ميلاد المعري، بعنوان (المعري) تبين لنا اطلاع فرحات على لزوميات المعري وإنتاجه الشعري.

ألا أيها الأعمى البصير الذي رأى
ولم ير فى الأديان إلا حباثلا
بفطنته قلب السورى المتقلبا
يصيد بها الداعى إليها التكسبا
فأعمل فيه مبرد النقد مغضبا
ديانتكم مكر وأحلامكم هبا
أفيقوا أفيقوا يا غواة فإنما

(فرحات، الصيف، ١٩٥٤م: ١٨٨)

كما أن أثر المعري ووجهة نظره في البشر، تبدو بشكل واضح عند فرحات في ديوان (أحلام الراعى) الذي صدر سنة ١٩٥٣م كما تبدو آواؤه في الأديان، ورجالها، والفروق

الدينية والمذهبية، وتناول الأمور تناولاً عقلياً... في كل شعره ودواوينه الأخرى... لنستمع إلى هذه الأبيات للمعري من لزومياته، حيث نرى أصداءها أو نراها بشكل موسع في قصيدة سلام الغاب من ديوان (أحلام الراعي)...
يقول المرعي في محاوراة بين الضأن وابن آدم:

لو حاورتك الضأن قال حصيفها الذئب يظلم وابن آدم أظلم
أظفارك استعلت إلى أظفاره بأساً، وتلك وقت وهذى تقلم

(المعري، ١٩٦١م، ج ٢: ٤٠٩)

ومثل هذا فعل فرحات في (سلام الغاب) حيث أدار حواراً بينه وبين إحدى نعاجه بعد أن قتل الذئب بمساعدة كلبه... وعلى لسان هذه النعجة جاء بمقارنته بين الإنسان والذئب كمقارنة المعري، وخرج منها بتفضيل الذئب على الإنسان، لأن الذئب لا يقتل إلا وهو جائع على حين أن الإنسان يقتل جائعاً ومتخماً... يقول على لسان النعجة:

قالت لماذا قتلت جائع لم يبيع منا سوى الطعام؟
ولو رجعنا إلى الطبائع فالوحش خير من الأنام
تتهم الذئاب بالحملان وأنت أضراها وأقسى عملا
الذئب لا يسطو إذا لم يجع وأنت تسطو جائعاً ومتخماً

(فرحات، أحلام الراعي، ١٩٦٢م: ٥٣-٥٧)

والحقيقة أنه كان للثقافة اللغوية والأدبية القديمة التي عبرها فرحات، أثر كبير في شعره من حيث الأوزان والقوافي والصور والعبارات والأساليب والألفاظ، فما رأيناه يخرج- في أغلب شعره- على الأوزان والقوافي العربية القديمة، كما أن الكثير من صورته تبدو عليها سمات البداوة والبيئة العربية القديمة.

ولا ننسى في هذا المجال أن الذي ساعد على ذلك عند فرحات، تلك الذاكرة القوية

التي كانت تختزن كل ما تقرأ أو تسمع. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ١٢٤)

قصصه الشعرية

القصة الشعرية

القصة شكل من أشكال التعبير الأدبي، تتجلى فيها - إلى حد كبير - عواطف صاحبها، ونوازعه، وآراؤه، واتجاهاته... وهي تقوم على ثلاثة عناصر - في الغالب - هي العرض والعقدة والحل، يسلم كل جزء فيها الحوادث إلى الجزء الذي يليه بشكل طبيعي متسلسل بعيد عن الحشو والاستطراد أو التدخل. (المصدر نفسه: ٢٤٤)

الحوادث تسير بشكل طبيعي منطقي، يعتمد اللاحق منها على السابق اعتماداً متناسباً بعيداً عن الافتعال، دون إسهاب أو إيجاز أو حذف. «مهمة القاص تنصر في نقل القارئ إلى حياة القصة، بحيث يتيح له الاندماج التام في حوادثها، ويحمله على الاعتراف بصدق التفاعل الذي يحدث بين الشخصيات والحوادث.» (نجم، ١٩٦٣م: ١٠)

أما القصة الشعرية، فهي فن أو نوع من الأنواع الشعرية التي يعدّها بعض النقاد فناً جديداً في الشعر العربي اقتبسناه عن الغرب، مع أن الدكتور مندورا ينكر وجود هذا النوع من الشعر عند الغربيين والحقيقة أن القصة الشعرية بمفهومها البسيط، نجدها في تراثنا الشعري منذ العصر الجاهلي حتى عصرنا الحاضر... نجده عند امرئ القيس والمنخل اليشكري والنابعة الذيباني والحطيئة وعمر بن أبي ربيعة وأبي نواس... وغيرهم أما القصة الشعرية بمفهومها الحديث القائم على ما تقدّم من مفهوم القصة، فهذا فن جديد لانهجته إلا عند بعض شعرائنا المحدثين. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٢٤٧)

وإذا كان الشعر تصويراً لما ينعكس على نفس الشاعر من جوانب الحياة، والقصة تصويراً لقطاعات من الحياة نفسها، فإن القصة الشعرية تجمع بين هاتين الصورتين، وتجعلنا نحيا التجربة النفسية الواحدة في نطاق أوسع وأفق أرحب (مريدن، ١٩٨٤م: ١٠)... وتوسل القصة بالشعر لابدّ أن يجعلها أكثر إيجازاً وأقوى إيحاء، وأشدّ وقعاً، وأعمق أثراً في النفس.

ولنر، بعد ما تقدم، ما هي أنواع القصة الشعرية عند فرحات، ومدى توفر العناصر

الفنية فيها...

في ديوانه الأول المطبوع سنة ١٩٣٢م باسم ديوان فرحات نجد أربع قصص بأسماء: الشهداء - احتجاج السعادين - الراهبة - كل حر في دولة الظلم جان... وتوخياً للدقة، لا بد لنا من القول إنها ثلاث أقاصيص وقصة واحدة، الأولى منها أقصوصة وجدانية مأساوية، والثانية رمزية اجتماعية وطنية، والثالثة وجدانية اجتماعية... أما الرابعة فهي القصة، وموضوعها وجداني وطني اجتماعي...

قصة (الشهيدان)

تدور الأقصوصة الأولى (الشهيدان) حول عروسين ناما في ليلة باردة، بعد أن وضعا الفحم المشتعل في غرفة نومهما لكسر حدة البرد، فاصبحا جتتين هامدتين... وقد بدأ الشاعر القصيدة بموعظة حول الموت والحب ثم انتقل إلى نقل حوادث أقصوصة، كما جاءت في إحدى الصحف، مبيناً أثر وقع الخبر على عيون المستمعين، ثم ختمها ببعض العظات... وهذه المواعظ في أول الأقصوصة وفي خاتمتها تعد حشواً أفقدت الأقصوصة الكثير من فنيته، وألصقت بها أجزاء لا تمت إليها بصلة...

قصة (احتجاج السعادين)

أما الثانية (احتجاج السعادين) فمضمونها يدور حول نظرية دارون التطورية، ووقع هذه النظرية لدى القروء، الذين ثاروا عند سماعهم لها فاجتمعوا وأرسلوا نائباً عنهم لمقابلة المولى تعالى وتقديم شكوى ضد البشر الذين يحاولون الانتماء لهم، مبدين رفضهم لتلك المحاولة... وقد استطاع ذلك النائب أن يقابل الله تعالى، فساق بين يديه خطبة طويلة عن أعمال البشر السيئة وعلاقاتهم الخسيصة وصفاتهم المنحطة... وهذه الخطبة المسهية لم تخدم هدف القصة العام، بل أضعفت روحها الفنية، ولكن الشاعر جاء بها تعبيراً عن نفسه ومرارته من البشر وأخلاقهم، وتألّمه من أبناء قومه الذين أنكهتهم الفروق الطائفية والمذهبية، وسأقتهم المطامع والأهواء على حساب كرامتهم وعزتهم وعلى حساب الوطن وكرامته، كقوله (على لسان ذلك النائب واصفاً القروء

إياها بالبشر).

لا تعرف الدين في غير الإخاء ولا
لا للبطارق تعنو في سياستها
تجنى على الخلق باسم الله والدين
ولا تجوع لإشباع المطارين
ولا تمزق أوطاناً مقدسة
بغضاً لأحمد أو حباً لمارون
ولا تبيع من الأعراب موطنها
كلا ولو غمروها بالنياشين

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ٩٥)

وينهى تلك الأقصوصة بأن الله تعالى قد طلب من نائب القروء أن يكف عن كشف معاييب البشر، مبيناً له أنه قد قطع علاقته بهم جميعاً... وطبعاً لا يخفى أن هذا التخلي لكثرة ما عند البشر من مساوئ وخسة.

قصة الراهبة

وأما الثالثة (الراهبة) فتدور حول فكرة الرهينة التي تتخذها بعض الفتيات فراراً من مشكلة تكون - في الغالب - مشكلة عاطفية... وموضوع الأقصوصة يدور حول فتاه جميلة من عائلة ثرية منعمة، هجرها حبيبها، فلجأت إلى الدير تداوى جراح الحب ولبست مسوح الراهبات ناذرة نفسها لله... وفي أحد الأيام استيقظت مع الصباح وأخذت تجمع من حديقة الدير ضمة من الزهر... وفي خلال ذلك لفتت نظرها زهرة جميلة في أعلى الجدار، تعز على من يريد جناها، فأخذت تسألها عن سبب بعدها وعيشها في عزلة، وتستحسن لها العيش في جوار الأزاهير... وعندما عادت تلك الراهبة إلى مأواها في الليل، ونصت ثيابها، بدت لها كنوز الجمال المختفي تحت ثياب الرهينة، فإذا بها تستعيد تلك العبارة التي خاطبت بها الزهرة المنفردة داعية إياها إلى الدخول في المجتمع. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٢٤٩)

وأنت تعيشين في عزلة
لمن خلق الله هذا الجمال
فلا في السماء ولا في الثرى
ومن ينتشق هذا الشذى

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ١٣٧؛ وديوان الربيع: ١٧٩)

وحول شخصية (الراهبة) التي تقف حياتها على خدمة البشر، لدينا ثلاث قصائد

يعبر كل منها عن شعور الشاعر بالتعاطف مع هذه المخلوقة، شعوراً لا يستهدف إصلاح المجتمع - على غرار ما رأينا في القصائد السالفة - ولكنه مجرد شعور عاطفي رومانسي، يستطلع الشاعر من خلاله ما تنطوي عليه نفسيته من أحاسيس، فللشاعر (إلياس فرحات) قصيدة (الراهبة) التي أطلت من الدير في ضحى يوم مشرق، وقد بدت على وجهها علائم اليأس، إنها فتاة يخلب حسننها الألباب، وإن علا وجهها شحوب ظاهر، مع أنها ما تزال في ربيع الحياة وشرخ الشباب. واخترق الشاعر حجب الغيب ليعرف علة وجودها في هذا الدير، فتراءى له أن وراءها حبيباً غدر بها وهجرها، فلم تجد دواء لصدمتها هذه سوى أن تهب نفسها لربها، وتقف حياتها على التبتل والرهبة.

ولما طلعت شمس النهار، خرجت من الدير لتجمع ضمة من الزهر تهديها لفادي الوري، وبينما كانت تسير على مهلها تلتقط زهرة من هنا، وورده من هناك، رأت زهرة نبتت في أعلى الجدار، فأعجبها شكلها ولونها، وزاد في قيمتها أنها تعز على من يريد اقتطافها، فحرك منظرها وجدانها فقالت لها بحنان:

لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذا؟

ثم غامت الدنيا في عينيها فقفلت عائدة إلى غرفتها، وقد حرك قلبها لهيب الذكريات، وحينما نضت ثوبها عنها لتنام، تبين من حسننها ما كان خافياً، وسمعت هاتفاً صامتاً هو رجع الصدى يقول لها:

وأنت تعيشين في عزلة فلا في السماء ولا في الثرى

لمن خلق الله هذا الجمال ومن يتنشق هذا الشذا؟

الصفة الأولى التي في هذه القصة، هي اعتماد الشاعر على التحليل الدقيق لنفسية هذه الراهبة، فقد أفرغ مشاعرها على الزهرة في رومانسية عميقة، فشاركته الطبيعة في أحاسيسها، لما يوجد من التشابه بينها وبين الزهرة من حيث الجمال، والرفعة، والامتناع على من يريد اقتطافها، وهذا كله أشاع في القصة لمحات رومانسية أصيلة.

وميزة أخرى نذكرها لهذه القصة، هي أن الشاعر تمكن من الربط بين حال الراهبة في الحقل، وحالتها حينما عادت إلى خدرها، ونضت ثوبها للنوم، وساعد على هذا الربط

إنهاء القصة بالبيتين الأولين من مناجاتها للزهرة. وليس في القصة حدث ضخم يستحق الالتفات، ولكن عناية الشاعر بدت واضحة بالتصوير لاسيما لتلك الراهبة وملامحها العامة، ونفسياتها التي تتطوى على روح نائرة مكتومة، مما جعل القصة بجملتها شائقة ممتعة. أما الراهبة الثانية فللشاعر ندره حداد وابراهيم العريض. (مريدن، ١٩٨٤م: ٣٠٤-٣٠٥)

والحقيقة أن هذه الأقصوصة عند فرحات تعد من أروع قصصه فنيًا، إذ تخلو من روح الخطابة والمواظب المباشرة وتدخّل الشاعر والإسهاب المخل... إلخ من تلك العيوب التي نجدها في قصصه الأخرى... كما تمتاز بتصوير الصراع النفسى تصويراً بديعاً عن طريق علاقة رمزية، وعن طريق إيماءات سريعة عميقة التأثير... وبالإضافة إلى هذا يتجلّى فيها الأسلوب الشعري الجميل وروعة الأخيلا والصور التي منحت القصة بعداً فنياً رائعاً وأثراً قويا أسراً. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٢٤٩)

قصة (كل حر في دولة الظلم جان)

أما الرابعة فهي قصة (كل حر في دولة الظلم جان) وهذه تقوم على موضوعين يسيران معاً، وهما: موضوع عاطفي وموضوع وطني... والموضوع العاطفي يمثل الجانب الأكبر من القصة.

تدور حوادث هذه القصة بين شاب وفتاة يعيشان في لبنان. تحابا منذ طفولتهما، وكبرا وكبر الحب معهما، ولكن الحائل بينهما كان اختلاف الدين، إذ هو مسيحي وهي مسلمة... وبعد أن يتحدث الشاعر بإفاضة عن آلام ذلك الصبي وتولّاه، ثمّ يتحدث عن الطبيعة وجمالها، غامزاً الأديان، كما يتحدث عن نفسه وآرائه... وفي هذا شيء من التدخّل المخلّ والمضعف لروح القصة وتسلسل الأحداث.

بعد ذلك يخرج إلى الحديث عن عدوان المستعمر على سورية، وقتل والد الفتاة في السجن لأنه لم يرض عن الظلم، واضطرار الفتاة وأمها إلى السفر إلى دمشق... ثمّ ينتقل إلى الحديث عن المآسى التي أنزلها المستعمر في سورية، وعن الثورة وزيد وسلطان

الأطرش ووقائع الدروز مع فرنسا، معرجاً على الدين، داعياً الصبي إلى السير إلى دمشق، للقاء محبوبته... وبعد شهر يلتقى المحب بمحبوبته في إحدى ضواحي دمشق، ولكن ثلة من الجنود السودانيين تحيط بهما طامعة بالفتاة... وتدور معركة بين الصبي والجنود، يقتل فيها بعض الجنود، كما يقتل العاشقان... وهنا يعرض الشاعر بالفرنسيين وأكاذيبهم وادعاءاتهم.

يتحسر الشاعر، بعد ذلك، على حال هذين العاشقين مبدياً تعاطفه معهما، ويُنهي القصيدة التي وصل عدد أبياتها إلى ٢٢٢ بيتاً، عن حال قومه العرب مع الدين الذي سلطوه على كل شيء، مهاجماً الدين، داعياً إلى الحب مبيناً أثره في النفوس والأعمال والسلوك.

والحقيقة أن بعض الوقائع الغرامية في هذه القصة، إنَّما هي نقل عما حدث مع الشاعر نفسه، وخاصة ذلك الجزء الذي ساقه على لسان الصبي متحدثاً عن حبه الأول وتعلقه بتلك المحبوبة، ملقياً التبعة على روايات جورجى زيدان التي كانا يقرأنها معاً، حيث يقول:

علمتني الغرام حرفاً فحرفاً	كتب زيدان آه من زيدان
كنت أتلو رواية عن فتاة	من بنات الملوك من غسان
...لست انسى قولي لها حين كان الـ	حب والشوق يجريان لساني
إن تكونى هنداً وفاء وحباً	كنت حسادك المحب العاني

(فرحات، ديوان، ١٩٣٢م: ٢١٨؛ وديوان الربيع: ٢٦٦)

وقد تعرضنا لذلك في حديثنا على حياة فرحات. وهذا الامر قد فات عزيزه مريدن عند دراستها لهذه القصة فتحيرت بشأنه ومما قالت: «أترأه يريد أن ينوه بروايات زيدان أم يريد أن يضيف على هذه العاطفية لوناً خيالياً خالصاً.» (مريدن، ١٩٨٤م: ٣٧٧)

لو حاولنا أن نخضع هذه القصيدة للمفهوم الفني للقصة، لوجدنا أنها تخرج على ذلك المفهوم في أغلب جوانبها... فمع أن عنوان القصة سياسى، إلا أن محورها الأول عاطفى، كما أن فيها شيئاً كثيراً من القسر والتدخل والإيضاح والوعظ والخطابة والحكم وفقدان

التسلسل المنطقي والاعتساف في ربط الأحداث... أى بالاختصار، لقد اتخذ الشاعر من الموضوع العاطفي الصغير وسيلة لبث آرائه وإفراغ نوازعه وأهوائه، وإلقاء مواظته وحكمه والتعريض بالمستعمر ورجال الدين والأديان والرسول، مهتماً بهدف القصة العام دون الاهتمام بتفصيلاتها وربط الأحداث وتسلسلها المنطقي... وهذا ما أضعف بناءها الفني وأفقدتها الخيط القصصي، بل أفقدتها الهدف الرئيسي الذي تهدف إليه القصة عامة، وهو اندماج القارى في أحداثها...

كما لا يخفى الأسلوب التقريرى فيها، وخلوها من الأخيطة والصور الجميلة، وبنائها على وزن البحر الخفيف ذى النغم الهادى القريب من النثر... وكل هذا كاد يحول القصيده عنده إلى نظم، بل هي نظم في كثير من المواضع. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٢٥١)

قصصه القصيرة

بالإضافة إلى القصائد المتقدمة، نجد أيضاً ست قصائد أخرى على شكل قصص قصيرة أو أقاصيص فى ديوانه أحلام الراعى... وهى قصائد رمزية على شكل أحلام عاش فيها الشاعر مع نعاجه، وشياهه، وكلبه الغضروف. وهذه القصائد فى مجموعها - ما عدا الأولى - تدور حول الهجاء الاجتماعى والتعريض بأنباء البشر وتفضيل الكلاب والحيوانات عليهم... أما الأولى فتدور حول الخمر والحب وأثرهما فى النفوس، كما تدور حول الشباب وضرورة انتهاز تلك الفترة والتمتع بها... وهناك قصيده أخرى فيها - بالإضافة إلى الهجاء الاجتماعى - فكرة أخرى وهى فكرة العدل الإلهى، ومحاولة الثورة والتمرد على ما قبلت به المخلوقات من تسلط القوى على الضعيف، والصراع بين فكرتين حول خالق هذا الكون، أهواله أم هى الطبيعية؟... وهذه القصيدة هى القصيدة الخامسة فى الديون وهى بعنوان؟ (إشارة استفهام).

هذه القصيدة - عامة - تبدو فيها الروح القصصية بوضوح، ولكن ما يضعف هذه الروح، هى الإطالة المُملة فى بعض المواضع، والخطابة والعظات فى مواضع أخرى، وسوق أشياء لا صلة لها بموضوع القصة فى مواضع ثالثة... كما نجد فيها - أيضاً -

الحوار الطرايف الذي يفضى عليها شيئاً من المتعة، والحركة الخفيفة التي تمنحها كثيراً من الحيوية. (بدوان قطامي، ١١١٩م: ٢٥١-٢٥٢)

النتيجة

كان إلياس فرحات شديد المعارضة، عالي الهممة، كثير الجلد على الدرس والتحصيل، فعكف على المطالعة والاقتباس وأخذ يتمرن على نظم الشعر متدرجاً من العامي إلى الفصح، دون أن يتعلم الصرف والنحو والعروض، ولكنه كان يستعين بأرباب العلم ويعرض عليهم شعره فيصحون له الأخطاء اللغوية. وكما كان العناد أبرز صفاته فعاند الشعر حتى امتلكه وعاند الحياة والرزق رغم أنه كان يهرب منه. مميزات إلياس فرحات الأدبية والشخصية بالايجاز، هي:

التأمل في الأدب الكلاسيكي، والمبادرة في خلق قوة التعبير الأدبي، والنظر في أعمال الشعراء، وعدم الانتباه إلى القواعد المشتركة والشعبية في الأدب العربي، الهروب من بعض قواعد العروض، والانتباه إلى المعنى والابتكار في الشعر العربي في خلق مركبات جديدة، استقلال الفكر، استعمال العواطف البشرية في الشعر، العناية بالحياة الاجتماعية والسياسية للعرب، الاحاطة بالعلوم القرآنية والأحاديث، العناية للعادات التقليدية في الحياة العربية، الاهتمام بالوحدة الموضوعية في القصيدة، فكرة حكيمة ونبيلة.

المصادر والمراجع

- بدوان قطامي، سمير. ١١١٩م. *إلياس فرحات شاعر العرب في المهجر*. القاهرة: دار المعارف بمصر.
- العودات، يعقوب. ١٩٥٦م. *الناطقون بالضاد في أمريكا الجنوبية*. المجلد الأول. بيروت: دار ریحاني.
- الفاخوري، حنا. ١٣٨٠م. *تاريخ ادبيات عربي*. مشهد: نشر توس.
- فرحات، إلياس.
- *أحلام الراعي*. ١٩٦٢م. الطبعة الثانية. بيروت: دار الملايين.
 - *ديوان فرحات*. ١٩٣٢م. سان باولو.

- الصيف. ١٩٥٤م. البرازيل.
- الرباعيات. ١٩٥٤م. البرازيل.
- قال الراوي. ١٩٦٥م. دمشق: وزارة الثقافة والإرشاد.
- مطلع الشتاء. ١٩٦٧م. القاهرة: مكتبة القاهرة.
- فرّوخ، عمر. ١٩٦٠م. أبو العلاء المعري الشاعر الحكيم بيروت: دار المشرق.
- المتنبي، أبو الطيب. ١٨٩٨م. ديوان. مصر: طبعة هندية.
- مريدن، عزيزة. ١٩٨٤م. القصة الشعرية في العصر الحديث. دمشق: دار الفكر.
- المعري، أبو العلاء. ١٩٦١م. اللزوميات. الجزء الثاني. بيروت: دار صادر.
- نجم، محمد يوسف. ١٩٦٣م. فن القصة. بيروت: دار الثقافة.

Archive of SID